في الرحلة إلى الحجاز

الوميض

للآنسة عزيزة توفيق

هناك لحظات لامعة تومض في حياة المرء وقد أحلكتها ظروف الحدثان . وفي فيض من نور تلك اللحظة التي لمت في حياتي وقفت أرقب الجموع المحتشدة المودعة لقطار الحجاج الذي يقلهم إلى السويس . ابتعد القطار رويدا واستلقيت على مقعد من ورائي أنظر إلى الباكيات أمامي ، وأدير عيني في اللوحين بمناديلهم وقد اغرورقت أعينهم بدموع بدت من ورائها لهفة الفراق : كنت أشعر بفيض من سعادة شاملة لا تؤثر فيها تلك المناظر الحزينة : فعجبت لنفسي اليوم وكم رثيت من قبل للباكي وشاركت المحزون الملتاع !

وصلنا إلى ميناء السويس وانشغلت بملاحظة الحمال وهو يحمل حقائبي وأمتعتي وأسرعت وراءه أعتلي سلم الباخرة وتركته لأبحث عن قمرتي ، حتى إذا اهتديت إليها تركت حاجاتي وخرجت إلى ظهر الباخرة لأراقب الجموع من جديد وأسمع للتنهدات وأرى الإشارات ولأبتسم في سكون . ترى لم كل هذا الحزن ؟ أولا يعلم القوم أنهم ذاهبون إلى حيث السعادة الكبرى ؟ يصلون ويبتهلون لله في أوقات معلومة ، وقد ابتعدوا عن زيف الحياة وأغراضها التعيسة ، فيغسلهم من أدرانها ويغفر لهم ما تقدم من ذنبهم ؟ لقد تركت أهلي وعشيرتي وعلى رأسهم أمي في بلدتي وحضرت القاهرة وحيدة لأستقل القطار إلى الباخرة وكلي فرح وابتهاج : روح تسيرها السعادة . تسبح وراء شعاعها الذي يرق في حياتي فتحقق أمنية طالما خفق بها فؤادي وترنمت بها روحي في صلاتي

ودوى البوق واهتزت الباخرة للسير في تؤدة ، وارتفع بجانبي صوت شجي حنون من حاجة ريفية :

يابحر يارايح « رائق » لاموج يعوق ولا ريح يضايق
يا بحـــر يا كبير لا موج يغرق ولا ريح يغير

وزادت نشوتي ووقفت أطيل النظر إلى موجات البحر الزرقاء وقد بدت منتشرة على صفحة الماء ، وظهرت وهي تتسابق وتتلاحق كوشي براق خلاب . وكأنما اجتذب هذا المنظر الساحر الأسماك فقفزت لاهية لاعبة مع الموج وقـــد بدا لونها الأحمر المزركش مكملا للمجموعة اللونية المكونة من انسجام ألوان المياه الزرقاء البنفسجية وقد علاها وشي الموج الأبيض . وتحركت شهوة الإنسان في صبي طباخ الباخرة فأسرع بشصه ليصطاد من جموع السمك ما سوف يجهز لنا به وجبة العشاء . وأيقظني من تأملي صوت أجش متسائلا : « لم لم تغادري الباخرة حتى الآن ؟ لقد تحركت في تؤدة . وعما قليل ستسرع ولن تتمكني من النزول » فتطلعت إلى صاحب الصوت في استغراب كأنما أوقظت من حلم بعيد ، وللمرة الثانية يكرر قوله موضحا « لقد نزل جميع المودعين ما عداك » فتبسمت ضاحكة من قوله وأخبرته بأنني « حاجة » ، وسرى هذا اللفظ « حاجة » في روحي متعة ولذة . وإذ دخلت قمرتي وطالعني وجهي في المرآة ولاحظت شعري المصفف ألهمت أن الشرطي كان على حق ؛ فما ينبغي أن أذهب عارية الرأس إلى البيت الحرام . ومن ثم أسرعت بخلع ملابس المدينة وارتديت الجلباب الأبيض الفضفاض وأسدلت خماري على جبيني . وشعرت إذ ذاك كأن وجهي قد ازداد نورا ، وروحي قد اكتسب صفاء ، وخرجت إلى ظهر الباخرة من جديد ، لأمتزج بالحجاج فوجدت أن أغلبهم لم يخلع بعد ملابسه

ووافاني الشرطي معتذرا بأنه ما كان يظن أن صغيرة مثلي تقدم على الحج . وللمرة الثانية نظرت إليه في تعجب وذهول ، وتركته لأجلس مع صاحباتي وكلماته ما زالت تدور في فكري . كيف ينظر الناس إلى الحج على أنه واجب الشيوخ وقد أثقلتهم ذنوب أعمالهم التي سطرتها سنو حياتهم ليتطهروا منها ؟ أوكانت الفريضة وتأديتها وقفا على الشيوخ دون الشباب ؟ — وكأنما كان ينتظرني عجب آخر إذ سمعتهن وسمعتهم في أحاديثهم وهي تعلو على هدير الموج يتذاكرون فيما تركوه من شؤون ، وبدت في أحاديثهم الشجون ؛ فمن شاكية زوجها وهو منها على خطوات ، وأخرى ساخطة على جارتها وما تركتها إلا من ساعات ، ومن باك على حبيب فقده ، وحاقد على أخ اغتصب حقه من الميراث ، وأنا

أطل عليهم من تفكيري الشارد

أو هؤلاء هم الحجاج يارب : الناس هم الناس فى كل مكان حتى فى الطريق إلى بيتك المعظم !

ومر يوم وكاد الثانى ينقضى ، وشاء الله أن يريح فكرى ، فدوى البوق واختلطت بدويه الزغاريد ، واستيقظت على نغمات القطعة الموسيقية التى كونتها تلك المقاطع المتوافقة ممتزجة بتصفيق الأمواج ، ونظرت إلى ساعتى فإذا بها تشير إلى الثانية عشرة مساء ، وسر فى أذنى صوت يتحدث قائلا بأننا قد وصلنا «رابغ» وأن علينا أن نبدأ الإحرام ، وأسرع الجميع إلى الحمام وأنا فيهم لنستحم على ترانيم الزغاريد ونلبس ثياب الإحرام . واجتمعنا على ظهر الباخرة ، وكانت تلك هى اللحظة الخالدة التى تبعث الرهبة فى القلوب ، وتحرك أقسى النفوس صلابة . الجميع فى ابتهال وخشوع « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك » وقد بدا الرجال عراة إلا من مئزر أبيض « بشكير » يدور حول وسطهم وآخر يغطى كتفهم الأيسر . وارتدت النساء اللابس البيضاء الواسعة ، والخمر وقد بدت مثل هالات جميلة حول وجوههن ، وضربتها على صدورهن فظهرن فى أبدع زى وأكمل زينة . عمت الفرحة واشتركنا فى التلبية ؛ السيدات فى صوت خافت يمتزج بترديد مرتفع قليلا ومتآلف من الرجال « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك » . هانحن قد وقفنا ملبين وجئنا ساعين ، نلبى نداءك أيها الإله العظيم . هذا النداء الذى يسرى فى روح كل مؤمن ، ويحرك قلبه فى كل حين حتى إذا ماوافى ميقات الحج بعث فيه شوقاً ينطلق ناراً ونورا ليذهب بمن استطاع إليه سبيلا حيث يلبى النداء ، وفاء بوعدك الذى وعدته لإبراهيم ؛ فلقد رددت الجبال والوديان أذانه فى الناس بالحج ، وحملته الأثير ووجد مجالا فى قلوب المؤمنين ممن استنشقوه من البشر

ولاحت معالم « جدة » من بعيد فزاد التهليل والتكبير

عزيزة توفيق
كلية الآداب

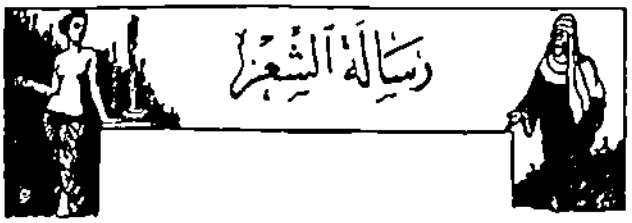

فى الشعر المطلق

التوبة الكبرى :

للاستاذ عبد اللطيف الشهابى

« مهداة إلى أخى الأستاذ أنور المعداوى »

هو :

لا تفزعى . . أختاه فالفجر لاح
على نثـــار من بقايا الجراح
غسلها المطر
كفنها الزهر
قبلها الطـــل بثغر الصباح
ساخرة . . تزدرى هوج الرياح

هى :

طافت بنا الأرواح فى أسرها
مخبولة تنـــدب فى سرها !
مغلولة اليـد
فى قسوة القيد
لتغـرق الآلام فى غرهـــا
وتدفن الآمال فى قبرهـا

هو :

لا تجزعى . . أختـاه لا تجزعى
هيـا معى . سيرى ولا ترجعى
نجتاز وادى الشقاء
إلى سروح الرجاء
نعيـد ذكرى حبنا المرع ! !
ونغسـل الآثام بالأدمع !